Averral at Yakoot al- Hamwi and the role of the author

Dr. yusuf zaradah*
Dr. Haifaa Dayoub**
Abd Alrahman Al- Abd Allah***

(Received 3 / 11 / 2019. Accepted 21 / 5 / 2020)

□ ABSTRACT □

This research is held to discuss the art of averral at the Yakoot al- Hamwi, and to explain the role of the author in it: Is it merely a carrier of the averral, or is it formulated up to oral accounts or written personal formulation, in order to show the importance of the historical, social, and intellectual in the Arab civilization; In enriching the material of many Arab blogs, and in enhancing its knowledge value, which made it the ether art form that absorbed all the poetry, Converses, Causeries, Councils and debates that enabled it to take a prominent place in the Arab heritage, as well as to deny saying the role of the Arab Author after the Hijri centuries The first Ih only on transport. Therefore, the research presents a definition of the averral language and terminology and then the meaning of the averral in the narrative, and then deals with the role of the author in the averrals contained in the authors of the (Dictionary of writers), and (Dictionary of countries) applied study, talking about the role of Yakoot in the transmission of averral by talking about: The author The carrier, the critical author, the creative author, and finally the research ends with reading his findings.

key words : Averral, Narrative, Author, Carrier, Critic, Creator.

*Associate Professor , Arabic Languag , Faculty of Arts and Humanities , Tishreen University Department , Latakia , Syria.
**Lecturer , Arabic Languag , Faculty of Arts and Humanities , Tishreen University Department , Latakia , Syria.
*** Ph.D.Student , Department of Arabic Language , Faculty of Arts and Humanities , Tishreen University , Latakia , Syria.

الخبر عند ياقوت الحمويّ ودور المؤلّف فيه

الدكتور يوسف زرده *
الدكتورة هيفاء ديّوب **
عبدالرحمن مرعي السليمان العبدالله***

(تاريخ الإيداع 3 / 11 / 2019. قبل للنشر في 21 / 5 / 2020)

□ ملخّص □

ينعقد هذا البحث لمناقشة فنّ الخبر عند ياقوت الحمويّ، وبيان دور المؤلّف فيه: أهو مجرّد ناقل للخبر، أم أنّه يصوغ ما يصل إليه من روايات شفويّة أو مكتوبة صياغة شخصيّة، وذلك لإظهار أهميّة الخبر التاريخيّة، والاجتماعيّة، والفكريّة في الحضارة العربيّة؛ إذ أسهم الخبر في إغناء مادة لكثير من المدوّنات العربيّة، وفي تعزيز قيمتها المعرفيّة؛ ممّا جعله الشكل الفنيّ الأثير الذي استوعب جميع ما دار في حياة العرب من أشعار، وأحاديث، وأسمار، ومجالس، ومناظرات مكّنته من أخذ مكانة بارزة في التراث العربيّ، وكذلك لنفي القول باقتصار دور مؤلّف بعد القرون الهجريّة الثالثة الأولى على النقل فقط. ولجلاء ذلك يعرض البحث تعريفاً بالخبر لغة واصطلاحاً ثم يذكر معنى الخبر في السرد، وبعدها يتناول دور المؤلف في الأخبار الواردة في مؤلفي (معجم الأدباء)، و(معجم البلدان) بالدراسة التطبيقيّة، فيتحدّث عن دور ياقوت في نقل الخبر من خلال الحديث عن: المؤلّف الناقل، والمؤلّف الناقد، والمؤلّف المبدع، وأخيراً ينتهي البحث بقراءة النتائج التي توصّل إليها.

الكلمات المفتاحيّة : الخبر ، السرد ، المؤلف، الناقل، الناقد، المبدع.

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
**مدرسة – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .
***طالب دكتوراه – قسم اللغة العربيّة – كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

مقدّمة:

الخبر فنّ أدبيّ عربيّ فاض على مختلف ضروب التأليف عند العرب فكان له فيها جميعاً نصيب، وخاصّةً كتب التراجم؛ فقد شكّل الخبر فيها مصدراً رئيساً ومادة أساسيةً للمعرفة؛ لأنّه أصغر وحدة حكائيّة تؤدّي وظيفة الإبلاغ؛ لذا سيحاول البحث مقاربة هذا الفنّ في مؤلّفات ياقوت الحمويّ، واستجلاء دور المؤلف فيه، ورصد دور هذه المولّفات في التراث العربيّ.

أهميّة البحث وأهدافه:

تأتي أهميّة البحث من خلال تطوير إجراءات البحث، وتدقيق أدوات الاشتغال بالانتقال إلى الاهتمام بالسرد العربيّ القديم (الخبر)، وإقامة علاقة بالنصّ التراثيّ العربيّ في مختلف تجلياته ومستوياته؛ لأنّ الخبر منفتح على التاريخ، والجغرافيا، ومختلف المعارف التي راكم فيها العرب تصورات شتّى، وتركوا لنا بصددها أدبيات متنوّعة. وكذلك تتجلّى أهميّته في محاولته إنزال الخبر المنزلة التي يستحقّها من النثر العربيّ؛ لكونه مصدراً مباشراً للفنّ القصصيّ العربيّ القديم، ومصدراً من المصادر التاريخيّة ذات القيمة الوثائقيّة.

ويهدف البحث إلى دراسة الأخبار في مؤلفي (معجم الأدباء، ومعجم البلدان) لياقوت الحمويّ، وبيان دور المؤلف فيها اعتماداً على الأخبار نفسها، وإلى استشفاف مكوناتها وآليّات بنائها، وبيان خصائصها ونظامها الذي تندرج ضمنه بوصفها فنّاً من فنون القول الذي تبلورت سننه ورسخت أقدامه؛ وذلك لفهم طبيعتها، وخصائصها الجماليّة، ومقاصدها عند ياقوت الحمويّ.

منهجية البحث:

سيعتمد البحث المنهج الوصفيّ التحليليّ في عرض مادته العلميّة؛ لكونه إجراءً نقديّاً يستطيع من خلاله الباحث إمعان النظر في الأخبار ودراستها دون عزلها عن سياقاتها في مؤلّفات ياقوت الحمويّ.

أولاً ـ الخبر لغة واصطلاحاً:

الخبر لغةً ما آلَ إليكَ من نبأٍ عمّن تستخبره، وهو النبأُ، وخبرتُ الأمرَ إذا عرفتُهُ على حقيقتِهِ، وأخبرَهُ خبورَهُ أنبأَهُ ماعندَهُ[1]. وهو بذلك أقرب ما يكون إلى الكلام المستعمل لنقل الأحداث والأقوال إلى سامع أو قارئ، وهذا الكلام يقوم به راوٍ.

وأما في الاصطلاح فالخبر فنّ قصصيّ يغلب عليه قول الحقيقة، ويشير إلى سرد شيءٍ من التاريخ، وما لبث أن دخلته المعلومات المزيّفة، أو المختلفة، أو الخياليّة[2].

والخبر في السرد يعرّف بأنّه وحدة سرديّة مستقلة تجسّم فعلاً أو حادثاً ما، وتبين موقفاً ما من ظاهرة تبنى على معايير أدبيّة خاضعة لمبدأ التراكم والترابط في علاقتها بالوحدات الأخرى، ويقتضي الخبر وظيفة مركزيّة مؤوّلة من بنيته ذاتها، أو من سياقات التراكم، أو من الوظيفة، أو من التقينة، أو من هذه مجتمعة، وهذا مايفسّر عدم مطابقة كثير

[1] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت، مادة(خ ب ر).
[2] من أشكال السرد العربي القديم: الخبر الأدبيّ، جمال حسين حمّاد ، مجلة البيان، الكويت، العدد 483، 2010م، ص17.

من الأخبار لمروياتها من حيث الحجم، والمادة، والوظيفة"[3]. وبذلك هو يدور خارج الزمان والمكان، ومنفتح وقابل للترهين كلّ لحظة، وكامل التحوّل، ويتميّز بقلّة تنوّع صيغ الخطاب فيه، وهيمنة صوت السارد.

ثانياً ـ دور المؤلّف في الخبر في مؤلّفي ياقوت الحمويّ:

أثنى أهل العلم الذين ترجموا لياقوت[4] عليه، وبيّنوا مكانته العلميّة والأدبيّة، وذكروا أخلاقه وصفاته. فقال ابن النجّار عنه:" كان عزير الفضل، صحيح النقل، متحريّاً، صدوقاً، له النظم الحسن، والنثر الجيد"[5]. في حين ذهب الذهبيّ إلى ذكر مواهبه العلميّة المتعدّدة، قائلاً:" الأوحد شهاب الدين الروميّ مولى عسكر الحمويّ السفّار النحويّ، الأخباريّ المؤرّخ"، ثم أشاد بشعره ونثره بقوله:" وكان شاعراً متفنّناً جيد الإنشاء"[6]. بينما امتدح اليافعيّ فصاحته الأدبيّة حينما ذكر بعضاً من رسالته إلى الوزير القفطيّ، فعقّب عليها بقوله:" وهذه الألفاظ اليسيرة من أولها رأيت كتابتها ليتعجب من بلاغتها من وقف عليها"[7]. وكذلك امتدح السخاويّ كتابه (معجم البلدان) بقوله:" إنّه من أحفل المصنّفات بالتعريف بالبلدان وذكرِ مآثرها وفتوحها"[8].

وقد أبدى عدد من الباحثين المحدثين إعجابهم بشخصيّة ياقوت الحمويّ وما كان يقوم به في مؤلّفاته، فعدّه عباس العزاويّ:" من أكابر المؤرّخين في عهد المغول... حكى ما رأى ووصف ما شاهد"[9]. وأشار زكي محمّد حسن إلى أنّ ياقوت امتاز بملكة النقد عن كثير من مؤلّفي العرب، وقد تجلّى ذلك في روايته:" بعض الأساطير الذائعة في عصره، وفي حكمه على تلك الأساطير، والتعليل لها"[10]. كما أشاد أحمد رمضان بأمانته العلميّة، وعزوه إلى المصادر التي استفاد منها مع ثنائه لأصحابها، فقال:" وقد كان ياقوت أميناً أمانة تذكر له بالفضل عندما عدد المصادر والمراجع التي اعتمد عليها أو أخذ منها، بل أكثر من ذلك فقد اختتم ثبت مصادره بالثناء على أصحابها، وحرص على ذكر اسم كلّ مرجع أخذ منه أو اعتمد عليه في حينه"[11].

لكنّ السؤال هنا هل ياقوت مجرد ناقل للأخبار ينقلها كم هي من مصادرها، أو ينقد أحياناً ما يحتاج منها إلى نقد، أم إنّه يصوغ ما يصل إليه من روايات صياغةً شخصيّةً؟ إنّ هذا السؤال وما يجري مجراه تستدعي منّا محاولة للإجابة عنها من خلال دراسة الأخبار الواردة في مؤلّفاته للوقوف على حقيقة دوره فيها.

---

[3] أدبيّة النصّ السرديّ عند أبي حيّان التوحيديّ، حسن إبراهيم الأحمد، دار التكوين، دمشق، 2009م، ص302.

[4] "شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحمويّ الروميّ البغداديّ، لا يُعلم شيء عن تاريخ مولده وكلّ ما يعرف عنه أنه أُخذ ـ وهو حدث ـ أسيراً من بلاد الروم، وحُمِلَ إلى بغداد، فاشتراه تاجر اسمه عسكر الحمويّ، فنُسِب إليه، وقيل له ياقوت الحمويّ ، عمل في التجارة ونسخ الكتب وألّف أكثر من كتاب في الأدب والتاريخ والجغرافيّة من أشهرها: (معجم الشعراء، ومعجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ومعجم البلدان). ومات في حلب سنة 616هـ " ينظر: معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، دار صادر، بيروت، 1977م، ص6.

[5] المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، ابن الدمياطيّ، تح: قيصر أبو فرح ، دائرة المعارف العثمانيّة ، حيدر آباد ، ط1، 253/19.

[6] سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبيّ، تح: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط7، 1410هـ ،312/22.

[7] مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان اليافعيّ، ، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة، ط2، 1413هـ، 60/4.

[8] الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، محمد بن عبدالرحمن السخاويّ، عُني بنشره حسام المقدسيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1979م، ص135.

[9] التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، عبّاس العزاويّ، شركة التجارة والطباعة المحدودة، بغداد، 1957م ، ص10.

[10] الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمّد حسن، دار المعارف، القاهرة، 1945م،ص106

[11] الرحلة والرحالة المسلمون، أحمد رمضان أحمد، دار البيان العربيّ، جدّة، د.ت، ص180.

1 ـ المؤلّف الناقل:

إنّ النظر في المعاجم العربيّة القديمة منها والحديثة يجعلك لا تجد لفعل (ألّف) إلّا معنى الجمع والوصل والتنظيم، فقد جاء في معجم (لسان العرب):" ألّفت بينهم تأليفاً إذا جمعت بينهم بعد تفرّق، وألّفت الشيء تأليفاً إذا وصلت بعضه ببعض ومنه تأليف الكتب، وألّفت الشيء أي وصلته، وألّفه: جمع بعضه إلى بعض، تألّف: تنظّم"[12].

وقد أدّى تطوّر حركة التأليف في التراث العربيّ إلى ظهور كتب رجعت أو استفادت من كتب سابقة، والأصالة فيها تكمن في الإضافات التي حملتها هذه الكتب سواء في الملاحظات الجديدة، أو الآراء المستحدثة، أو في المنهجيّة القائمة على الترتيب والتبويب.

وقد ذكر ابن خلدون في مقدّمته الشهيرة هذا الضرب من التأليف في سياق تحديده لمقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها ناقلاً إيّاها عن أرسطو، وهي عنده سبعة:" أوّلها استنباط العلم بموضوعه، وتقسيم أبوابه وفصوله، وتتبّع مسائله. وثانيها أن يقف المؤلّف على كلام الأولين وتواليفهم، فيجدها مستغلقة على الإفهام، ويفتح الله له في فهمها فيحرص على إبانة ذلك لغيره ممّن عساه يستغلق عليه، لتصل الفائدة لمستحقّها. وثالثها أن يعثر المتأخّر على غلط أو خطأ في كلام المتقدّمين ممّن اشتهر فضله وبَعُدَ في الإفادة صيته، ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشكّ فيه، ويحرص على إيصال ذلك لمن بعده. ورابعها أن يكون الفنُ الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول بحسب انقسام موضوعه، فيقصد المطّلع على ذلك أن يتمّم ما نقص من تلك المسائل، لِيَكْمُل الفنّ بكمال مسائله وفصوله، ولا يبقى للنقص مجال. وخامسها أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتّبة في أبوابها ولا منتظمة، فيقصد المطّلع على ذلك أن يرتّبها، ويهذّبها، ويجعل كلّ مسألة في بابها. وسادسها أن تكون مسائل العلم مفرّقة في أبوابها من علوم أخرى، فينتبه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفنّ وجمع مسائله، فيفعل ذلك، ويظهر بهِ فنّ ينظمه في جملة العلوم التي ينتحلها البشر بأفكارهم، كما وقع في علم البيان، ومؤلّفات عبدالقاهر الجرجانيّ والسكاكيّ فيه بعد أن وجدوا مسائله منثورةً في كتب النحو. وسابعها أن يكون الشيء من التواليف التي هي أمهات للفنون مطوّلاً مسهباً، فيُقْصَدُ بالتأليفِ تلخيص ذلك بالاختصار، والإيجاز، وحذف المكرّر إن وقع، مع الحذر من حذف الضروريّ لئلا يُخِلَّ بمقصد المؤلِّف الأوَّل"[13]. وبتتبّع هذه التقسيمات يمكننا القول إنّ الضربَ الأوّل من التأليف يختصّ بالأصول، وأمّا بقية الضروب فإنّها تندرج في نطاق الرجوع والاستفادة من الكتب السابقة.

وقد عمد العلماء العرب في أواخر القرن الرابع إلى جمع المرويات والأخبار الموجودة في تضاعيف المؤلّفات التي ألّفت قبلهم حتّى أصبح المؤلّف ينصّ صراحة على أنّ نصيبه من الكتاب المنسوب إليه لا يتعدى الجمع والاختيار والاختصار والتمهيد. وهكذا فقد غدا قيام المؤلّفين بالتصريح بقيام كتبهم على الجمع والاختيار بمنزلة السنّة التي يذكّر بها، وإنماء للكتاب إلى ضرب مخصوص من التأليف مخصوص. وقد وجدنا ياقوت الحمويّ في القرن السابع يعبّر عن ذلك في مقدّمة كتابه(إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، فيقول:" إنّما تصدّيت لجمع هذا الكتاب لفرطِ الشَّغَفِ والغرام، والوجد بما حوى والهيام... حتّى قلتُ فيه مع اعترافي بقلّة بضاعتي في الشعر، وعلمي بركاكة نظمي والنثر:

فكم قد حوى من فضلِ قولِ محبَّرٍ ومن نثرِ مصقاعٍ ومن نظم ذي فَهْمِ
ومن خَبَرٍ حلو طريفٍ جمعتُهُ على قِدَمِ الأيام للعرب والعجمِ[14]

[12] لسان العرب، ابن منظور، مادة (أ ل ف).
[13] ينظر: المقدّمة، عبدالرحمن بن خلدون، الدار التونسيّة للنشر، تونس، 1989م، 2: 341- 342.
[14] معجم الأدباء "إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب"، ياقوت الحمويّ، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1993م، المقدّمة ص 12.

نلاحظ في هذا القول استعمال ياقوت لمادة (ج م ع) مصدراً وفعلاً. وقد جاءت في المرّة الأوّلى متّصلة بالكتاب (جمع هذا الكتب)، وفي المرّة الثانية (خبر جمعته) ممّا يدلّ على أنّ الخبر كان أكثر ما في الكتاب. على أنّ ما يسترعي انتباهنا من هذا القول هو تصريح ياقوت بركاكة نثره في مقدّمة كتاب نثريّ أساساً، ووصفه بأنّه نثر مصقاع، ممّا قد يدلّ على أنّ واضع النثر شخص آخر غير ياقوت.

كما نجده في موضع آخر من مقدّمة كتابه (معجم البلدان) يصرح علناً بأنّه ضمّن كتابه (أشياء) يشكّ في صحتها، فيقول :" لقد ذَكرتُ أشياء كثيرةً تأْباها العقول، وتَنْفِر عنها طباع من له محصول، لبُعدها عن العادات المألوفة، وتنافُرها عن المشاهدات المعروفة ... وأنا مُرتاب بها نافرٌ عنها مُتَبَرّئٌ إلى قارئها من صِحَّتها، لأنّي كتبتها حِرصاً على إحراز الفوائد، وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد، فإن كانت حقاً فقد أَخذنا منها بنصيب المصيب، وإن كانت باطلاً فلها في الحق شِرك ونصيب، لأنّني نَقَلتُها كما وجدتُها، فأنا صادق في إيرادها كما أوردتُها"[15]. واعتراف ياقوت بأنّه نقل الأخبار كما وجدها يفيدنا فيما نحن منه بسبيل؛ إذ هو دليل على أنّ دور المؤلّف الأساس هو جمع الأخبار من مظانها، وإيرادها في كتابه على الصورة التي تلقّاها بها، ولعلّه يجوز لنا أن نستنتج من هذا القول سطوة المكتوب في عصر ياقوت الحمويّ، وغلبة النقل من الكتب على السماع من الشيوخ.

وقد يكون قصد راوي الأخبار ليس الحقيقة التاريخيّة وإنّما هو الإطراف والإمتاع، وشحذ العقول، وإنماء الملكات أي أنّ قصد المؤلّف نفعيّ مداره على المرجع، أمّا قصد الراويّ فجماليّ مداره على الفنّ، ولهذا قال ياقوت إنّه يمكن أن يكون صادقاً على الرغم من مجافاة أخباره للحق.

ولأنّ صحّة النقل مقدّمة على صحّة المنقول في مجال الأخبار فقد كان الحرص شديداً على بيان الأصول التي استمدّت منها الأخبار في بعض الأحيان، وهذا ما بوّأ الإسناد منزلة متميّزة. وهذا الوضع المخصوص لأدب الأخبار ربّما قادنا إلى البحث في صيغ الأخبار. هل ينقل الخبر بلفظه أم بمعناه، وهل يغير ياقوت منه بالزيادة والنقص أم يلتزم نقله حرفيّاً؟ مهما يكن من أمر فإنّ التزام ياقوت بالمؤلّفات المكتوبة كان واضحاً، وإنّ دوره كان ينحصر في الانتقاء والاختيار، ولعلّ هذه الظاهرة كانت ملزمة لأدب الأخبار عموماً.

وإنّ تطابق الأخبار من حيث صيغتها اللفظيّة يزداد في نظرنا وضوحاً ويشتدّ عوده عند رسوخ الروايات الشفويّة المتعدّدة في نصّ مكتوب واحد. فهذه الكتابة ـ غالباً ــ ما تقيّد الخبر في رواية واحدة، ومن ثم نجد أنّ هذا الترديد في مستوى الخطاب كلّما تقدّم بنا الزمان حتّى أنّ دور المؤلّف يتحرك من فاعليّة معينة قوامها الانتقاء والتصنيف والتبويب، إلى فاعليّة أخرى تنحصر في النقل والنسخ.

والمتأمّل لمؤلّفات ياقوت الحمويّ يقف على جانب من هذه الحقائق، فياقوت لا يخفي في مقدّمته أنّه أودع كتابه المؤلّفات السابقة له، فيقول: " وجمعتُ في هذا الكتاب ما وقع إليّ من أخبار النحويين، واللغويين، والنسّابين، والقرّاء المشهورين، والأخباريين، والمؤرّخين، والورّاقين المعروفين، والكتّاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدوّنة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعينة، وكلّ من صنَّف في الأدب تصنيفاً، أو جمع في فنّه تأليفاً... وأمّا من تقدَّم زمانه، وبَعُدَ أوانه، فأورد من خبره ما أَدَّتِ الاستطاعة إليه، ووقفني النقلُ عليه...وأثبت مواضعَ نقلي ومواطنَ أخذي من كتب العلماء المعوَّل في هذا الشأن عليهم، والمرجوع في صِحَّة النقلِ إليهم"[16]. فقد استقصى الكتب التي

[15] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، المقدّمة ص 12.
[16] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، المقدّمة ص 7.

اهتمّت بالتراجم وأخذ الأخبار الواردة فيها؛ لذلك نجده يصرح باعتماده على ما ألّفه غيره وجمعه وتضمين كتابه لهذه المختارات.

وقد تكون الأخبار المرويّة مجافية للواقع فلا يسقطها ياقوت بل يوردها ويتبرأ من العهدة فيها، وكأن مهمّة النقل مقدّمة عنده على مهمّة النقد؛ ولذلك فلا يصح أن يلام أو يعاب لإيراد هذه الأخبار لأنّ دوره فيها منحصر في نقلها وروايتها. فياقوت يورد ممّا وقع لديه من أخبار مستحسنة والاستحسان يمكن إلّا يلتقي بالحقيقة التاريخية، فقد يستحسن الخبر لما فيه من طلاوة وفنّ وأدبيّة، وإن كان حظه في الصدق ضيئلاً أو منعدماً، كما في حكاية ابن الخاضيّة محمّد بن أحمد مع الفأرتين التي يقول في آخرها :" وهذه حكاية على ما يُرَى من الاستحالة، وقد أوردتها أنا لثقة موردها وتحريه في الرواية، فإن صَحَّتْ فزتَ بحظٍّ من العجب، وإلّا فاجعلها كالسمر تستمتع به"[17].

وهذا يقودنا إلى ضرورة التفريق بين طبيعة الخطاب التاريخيّ وطبيعة الخطاب الأدبيّ. وقد ميّز محمّد أحمد خلف الله بينهما، فقال:" إنّ عمل المؤرخ هو رواية ثم استبعاد أو رواية تريد الوصول إلى الحقيقة التاريخيّة، أمّا الرواة فإنّما عليهم أن يعتمدوا في عملهم صدق النقل وصحّة الإسناد. والراويّ عند ذلك هو ناقل الخبر دون نقد لمتنه، صدقاً كان ذلك المنقول أو كذباً. فليس عليه من بأس في ذلك. وإنّما البأس كلّ البأس في الوضع أو في الرواية عمّن لم يُرْوَ عنه أو في التحديث عمن لم يسمع منه أو يأخذ عنه بمكاتبات أو إجازات"[18].

على أنّ هذا الدور الأساسيّ لياقوت الذي يتمثّل في تحمّل الأخبار واختيارها وأدائها ـ وإن كان غالباً عنده وعند غيره من مؤلّفي كتب الأخبار ـ فإنّه لا يمكن اعتباره الدور الوحيد. فما هي الأدوار الأخرى التي اضطلع بها ياقوت الحمويّ؟

2 ـ المؤلّف الناقد:

دأب مؤلّفو كتب الأخبار على الإشارة إلى أنّهم قد اختاروا من الأخبار بعضها، وتخيّروا منها أحسنها، وهو عمل من صميم النقد. وقد جعل الجاحظ تميّز الأخبار شرط من الشروط التي بها يحيى الأدب، فقال:" ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة تمييز الأخبار، واستنباط الآثار، وضمّ كلّ جوهر نفيس إلى شكله، وتأليف كلّ نادر من الحكمة إلى مثله، بطلت الحكمة وضاع العلم وأميت الأدب وَدَرَسَ مستورُ كلّ نادر"[19]. فالخبر هنا ـ وإن كان مادة من مواد التأليف لا مجالاً للإنشاء والابتكار ـ يحتاج إلى عمل تقوميّ يقوم على التمييز إلّا أنّ الجاحظ لا يبين مستويات هذا التمييز ومقاييسه.

وممّا لا شك فيه أنّ ياقوت الحمويّ في مؤلّفاته كان يقوم بانتقاء مادته من العديد من المصادر الأدبيّة واللغويّة، والتراجم والسير، وكتب التاريخ والبلدان التي يرى فيها أنّها تخدم كتبه.

وعلى الرغم من أنّه في كثير من الأخبار التي أوردها كان يكتفي بسردها دون أيّ تعليق أو نقد، إلّا أنّنا نراه بين الحين والآخر يتوقف عند بعضها ناقداً ومحقّقاً وأحياناً معلّقاً ومذكّراً بما سبق لرابط الأخبار والأحداث مع بعضها. فهو يرى أنّ الرواة يصيبون ويخطئون، فيقول: " فإنّي رأيت جُلّ نَقَلة الأَخبار، وأعيان رُواة الأَشعار والآثار، ممّن عُنِي بها دهرَه، وأَنفد فيها عَرضه وعَمْرَه حَسَنَ الاستمرار على الصواب، والجأ حدائق الرشد في كلّ باب، ضارباً بقداح الفَلْج في أفانيين العلوم والآداب، عند قراءة السنن والآثار، ورواية الأحاديث والأخبار، لتحصيلهم إيّاها بالمعاني، واستدلالهم على

[17] **معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، 2358/5.**
[18] **صاحب الأغاني أبو الفرج الأصبهانيّ الراوية، محمّد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة ، 1962م، ص7-8.**
[19] **الرسائل (رسالة في الحنين إلى الأوطان)، الجاحظ، تح: عبدالسلام هارون، دار الخانجيّ، مصر، 1979م، 383/2.**

مغزى أوائل الكلم بالثَّواني، لأخذ بعض الكلام بأهداب بعضٍ، ودلالة أواخره على أوائله، وأوائله على أواخره، حتّى يمرّ بهم ذكر بقْعة كانت بها وقعة واقعة، فيخلط لاحتياجه إلى النقل لا العقل، والرواية لا الدراية، فتراه إمّا غالطاً أو مغالطاً"[20].

وإنّ تتبع الروايات ومعرفة ما بينها من اختلاف ـ أي التمييز بينها ونقدها ـ كانت من الأمور المعروفة في عهد ياقوت وقبله، ولعلّها كانت من لوازم رواية الأخبار؛ إذ يتعين على الراوية أن يعرف ما بين الروايات من ضروب الاختلاف والاختلال. وقد قدّم لنا ياقوت صورة من صور التمييز بين الروايات حين روى لنا خبراً له روايتان مختلفتان عن مكان وجود الصنمين (إساف ونائلة): الأوّلى عن ابن عبّاس رضي الله عنه أشار فيها إلى عبادة أهل مكة لهما حول الكعبة، وأنّهما كانا كذلك حتّى كسرهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم الفتح فيما كسر من الأصنام. والثانية عن بعض الأحاديث لمسلم بن الحجاج يذكر فيها أنّهما كانا بشط البحر وكانت الأنصار في الجاهليّة تهل لهما. وقد تتبع ياقوت هاتين الروايتين وعلّق على أحاديث ابن الحجاج أنّها" وَهْم والصحيح أنَّ التي كانت بشطِّ البحر مَنَاة الطاغيّة"[21].

على أنّ ياقوتاً يبدو في بعض الأحيان بمثابة الذاكرة التي لا تكتفي بإيراد الأخبار، وإنّما تشير أيضاً إلى ما بينها من وجوه شبه. ومثال ذلك أنّ ياقوتاً روى لنا خبراً ضمن أخبار أبي خليفة الفضل بن الحباب قرأه في (كتاب هراة) للفاميّ من أنّ لصّاً دخل داره، " فصاح ابنه باللصّ، فخرج أبو خليفة إلى صحن الدار، فقال: أيّها اللصّ مالك ولنا؟ ... فصاح ابنه: إنّما كان كلباً، فقال الحمد لله الذي مسخه كلباً وردَّ عنّا حرباً"[22]. ثم أشار إلى أنّ التنوخيّ ذكرَ هذه الحكاية وقال في آخرها: " فقال له غلامه: يا مولايّ ليس إلّا الخير إنّما هو سنور، فقال أبو خليفة: الحمدلله الذي مسخه هرّاً وكفانا شرّاً"[23]. وبعدها عقّب على هذه الحكاية بقوله: " ومثل هذه الحكاية تُحكى عن أبي حيّة النميريّ، مشهورة عنه، وقال في آخرها: الحمدلله الذي مسخه كلباً وردنا حرباً"[24]. وياقوت هنا ينبّه القارئ إلى هذا التطابق بين هذه الروايات في العبارة والموضوع، ومع الاختلاف في الشخصية المتحدّث عنها (أبو خليفة، وأبو حيّة النمريّ)، أو في اللصّ (الكلب، والهراة). ولئن لم يكشف ياقوت لنا هنا السرّ وراء هذا التطابق والاختلاف، فحسبه أنّه أثار في ذهن القارئ شكوكاً دفعته إلى التفكير في مصداقيّة هذه الأخبار.

غير أنّ ياقوتاً يتجاوز في بعض المواضع التذكير، فيعمد إلى ترجيح خبر على آخر، على غرار ما نجد في أخبار (دومة الجندل)، فقد ذكر عن أبي عبيد السكونيّ أنّه تمّ فتحها في السنة التاسعة من الهجرة على يد خالد بن الوليد بعد نقض أكيدر بن عبدالملك صاحب دومة الجندل الصلح بعد وفاة النبي صلّى الله عليه وسلّم، ممّا جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجليه عنها في من أجلى من مخالفي الدين الإسلام إلى الحيرة. فيتوقف ياقوت على هذ الخبر لأنّه يتناقض مع الأخبار التي تشير إلى أنّ خالد بن الوليد غزا دومة الجندل من العراق سنة 12هـ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وقتل أكيدر لأنّه نقض الصلح وارتدّ، فيقول:" وأهل كتب الفتوح مجمعون على أنّ خالد بن الوليد رضي الله عنه، غزا دومة أيام أبي بكر رضي الله عنه عند كونه في العراق سنة 12هـ، وقُتل أُكيدر لأنّه نقض

[20] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، المقدّمة ص 8.
[21] معجم البلدان ،ياقوت الحمويّ، 171/1.
[22] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ،2174/5.
[23] المصدر نفسه، 2174/5.
[24] المصدر نفسه، 2174/5.

وارتدّ، وعلى هذا لا يصحّ أنّ عمر رضي الله عنه أَجلاه، وقد غُزِيَ وقُتل في أيام أبي بكر رضي الله عنه"[25]. ثم يذكر أنّ أرجح ما قيل عن ذلك هو ما ذكره أحمد بن جابر في كتابه، فيقول:" وأحسن ما ورد في ذلك ما ذكره أحمد بن جابر في كتاب الفتوح له، وأنا حاكٍ جميع ما قاله على الوجه، قال: بعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالد بن الوليد رضي الله عنه سنة تسع إلى أُكيدر بن عبدالملك بدومة الجندل، فأخذه أسيراً، وقتل أخاه، وقدم بأُكيدر على النبي صلّى الله عليه وسلّم، وعليه قَباءُ ديباج بالذهب، فأَسلم أُكيدر، وصالح النبي صلّى الله عليه وسلّم على أرضه وكتب له ولأهل دومة كتاباً... فلمّا مات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم منع أكيدر الصدقة، وخرج من دومة الجندل، ولحق بنواحي الحيرة، وابتنى قرب عين التمر بناءً وسمّاه دومة... وقيل إنّ خالداً لمّا انصرف من العراق إلى الشام مرّ بدومة الجندل التي غزاها أوّلاً بعينها وفتحها وقتل أُكيدر"[26].

وإنّ الترجيح والمفاضلة بين الأخبار وجهان من وجوه النشاط الذي تعاطاه المؤلّفون عند إيرادهم بعض الأخبار. وقد كان لياقوت في نقده لما ساقه من أخبار عدّة طرق، أوّلها أنه قد يتبع الخبر بنقد صريح وهو الغالب، ومن ذلك ما رواه عن أبي الفضل بن طاهر عن عبدالرحمن بن أبي حاتم عن أبيه الذي قال: إنّه مولى تميم بن حنظلة بن غطفان. فيستبعد ياقوت ذلك، وينقد هذا النسب قائلاً: " وهذا وهمٌ ولعلّه أراد حنظلة بن تميم، وأمّا غطفان فإنّه لاشكّ في أنّه غلط لأنّ حنظلة هو حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم وليس في ولده من اسمه تميم ولا في ولد غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان من اسمه تميم بن حنظلة البتة على ما أَجمع عليه النسّابون إلّا حنظلة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عنس بن بغيض بن ريث بن غطفان، وليس له ولد غير غطفان وليس في ولد غطفان من اسمه تميم"[27].

وقد يردّ النقد مدرجاً في صيغة الإسناد قبل متن الخبر فيكون بمنزلة المصطلح الذي يرسم معالم القراءة، ويضبط حدودها، ومثال ذلك أنّ ياقوتاً يقول في أخبار الفرات وذكر فضائله:" عن السُّدّيّ، والله أعلم بحقه من باطله، قال: مدّ الفرات في زمن عليّ بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، فألقى رمانة قطعت الجسر من عظمها فأخذت فكان فيها كُرٌ حبّ فأمر المسلمين أن يقتسموها بينهم وكانوا يروون أنّها من الجنة، وهذا باطل لأنّ فواكه الجنة لم توجد في الدنيا"[28]. وقد علّل ياقوت أنّ الذي دفعه إلى ذكر الخبر وتسجيله هو أنّ العلماء ذكروه في عدة مواضع من كتبهم. ولاشكّ أنّ ذلك يدلّل على أنّ ياقوت كان يستقرئ مصادر عدة حول الخبر الواحد، كما يقوم شاهداً على أوليّة الجمع والنقل ـ عند ياقوت ـ على التقويم والنقد.

وربّما يورد ياقوت جملة من الأخبار ويرجئ الحكم عليها إلى النهاية على غرار ما فعل في أخبار بناء مدينة الإسكندريّة، إذ يقول:" وهذه أخبار نقلناها كما وجدناها في كتب العلماء، وهي بعيدة المشافهة من العقل لا يؤمن بها إلّا من غلب عليه الجهلُ، والله أعلم"[29]. أو يعمل على نقد كلّ واحد منها على حدّة، ومن ذلك الأخبار التي اطلّع عليها ياقوت في الرسالة التي أرسلها أحمد بن فضلان رسول الخليفة المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة سنة309هـ، التي أشار فيها ابن فضلان إلى رحلته من خوارزم إلى الجرجانيّة التي يفصل بينهما ماء مقدره خمسون فرسخاً، فيعلّق ياقوت على كلام ابن فضلان متسائلاً عمّا يقصده بخوارزم أهي اسم مدينة أو ناحيّة، فيقول:" هكذا قال ولا أدري أيّ شيء عنى

[25] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، 488/2.
[26] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، 488/2.
[27] المصدر نفسه، 311/2.
[28] المصدر نفسه، ،242/4.
[29] المصدر نفسه، 185/1.

بخوارزم لأنّ خوارزم هو اسم الإقليم بلا شكّ"[30]. ثم ذكر ابن فضلان أنه أقام بالجرجانيّة أياماً، وجمد جيجون من أوّله إلى آخره، وكان سمك الجمد تسعة عشر شبراً. فيعترض ياقوت على ذلك ويكذب ابن فضلان؛ لأنّ أكثر ما يجمد خمسة أشبار، فقال:" وهذا كذب منه، فإنَّ أكثر ما يجمد خمسة أشبار وهذا يكون نادراً، فأمّا العادة فهو شبران أو ثلاثة، شاهدتُهُ وسألت عنه أهل تلك البلاد"[31]. وبعد ذلك تحدّث ابن فضلان عن شدة برد خوارزم، وسقوط الثلوج عليها مع هبوب ريح عاصفة شديدة، فيستبعد ياقوت شدة بردها بهذه الصفة، وربّما كان ذلك من مبالغة ابن فضلان في وصف بردها؛ لأنّ ياقوتاً يبين أنّ اجتماع شدة البرد والرياح يصعّب الحياة فيها، فيقول:" وهذا أيضاً كذب فإنّه لولا ركود الهواءِ في الشتاء في بلادهم لما عاش فيها أَحد"[32]. وكذلك يتعقّب ياقوت ابن فضلان في حديثه عن حمل عجلة من حطب الغضا ثلاثة آلاف رطل، فيكذّب ذلك لأنّه مرّ بتجربة مماثلة في نقله بضاعة من القماش على عجل، فيقول:" وهذا كذب أيضاً لأنّ العجلة أكثر ما تجرُّ على ما اختبرته، وحملت قماشاً لي عليها، ألف رطل لأنّ عجلتهم جميعها لا يجرّها إلّا رأْس واحد إمّا بقر أو حمار أَو فرس"[33].

وقد يورد ياقوت في سياق نقده لبعض الأخبار التي يسوقها خبراً آخر يؤيده أو ينفيه وينكره على غرار ما نجده في حديثه عن دير الجماجم، فقد نفى ياقوت أن يكون الدير ـ كما ذُكِرَ عن ابن الكلبيّ ـ قد سمّي بدير الجماجم بعد انتصار بني عامر على بني تميم وذبيان حيث كَثُرَ القتل في بني تميم، فبنوا من جماجمهم هذا الدير، بقوله: " وهذا عندي بعيد من الصواب، وهو مقول على ابن الكلبيّ وليس يصحّ عنه فإنّه كان أهدى إلى الصواب من غيره في هذا الباب"[34]. ثم عمد إلى مناقشة الخبر ذاكراً أن وقعة بني عامر وبني تميم وذبيان كانت بشعب جبلة بأرض نجد وليس بالكوفة، ومدلّلاً على صحة قوله بمصدر آخر يقوى به الخبر، فيقول:" ولعلّ الصواب ما حكاه البلاذريّ عن ابن الكلبيّ أنّ بلاداً الرَّمَّاح، وبعضهم يقول بلال الرَّمَّاح وهو أَثبت، ابن محرز الأيادِيّ قُتِل قوماً من الفرس ونصب رؤُوسهم عند الدير فسمّي دير الجماجم"[35]. وقد جاء بهذا الخبر من كتاب (أنساب المواضع) لابن الكلبيّ، وكأنّه يؤكّد صحة نفيه أن يكون الخبر الأوّل له.

وقد تنوّعت الأحكام التي يصدرها الحمويّ في نقده بين لينة هينة، وحادّة عنيفة، وغالباً ما كانت هذه الأحكام لينة هينة. ومن ذلك قوله في صحة نسب أبي عبدالله الأغزونيّ الذي أورده عن أبي سعد السمعانيّ:" هكذا ذكر أبو سعد"[36]، وقد خلط في هذه الترجمة في عدة مواضع، فذكرها تارة الآغزونيّ كما ههنا، وتارة الأغذونيّ بالذال المعجمة من غير مدّ، وتارة الأغزونيّ بالزاي أيضاً لكن بغير مدّ، ونسب إليها هذا المنسوب ههنا بعينه، ثم نسب هذا الرجل إلى الأحنف بن قيس، وقد قال المدائنيّ: إنّ الأَحْنَف لم يكن له وَلدٌ إلّا بَحْر، وبه كان يكنّى، وبنت، فولد بحر ولداً ذكراً درج ولم يعقب، وانقرض عقبه من ابنته أيضاً "[37].

وإذا كان الغالب في هذه الأحكام أن تكون لينة هينة فإنّ بعضها كان يتميّز بقدر كبير من الحدّة والعنف على غرار ما فعله حين نقد نسب البربر؛ إذ زعموا أنّهم من العرب، قائلاً:" فأكثر البربر تزعم أَنّ أَصلهم من العرب، وهو

[30] المصدر نفسه، 397/2.
[31] المصدر نفسه، 397/2
[32] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، 398/2.
[33] المصدر نفسه، 398/2.
[34] المصدر نفسه، 504/2.
[35] المصدر نفسه، 504/2.
[36] المصدر نفسه، 225/1.
[37] المصدر نفسه، 224/1.

بُهتانٌ منهم وكذبٌ"[38]، ولم يتوقف عنده نفي نسبهم من غير دليل بل جاء بالأدلة التي تؤيّد أنّهم من العمالقة، ومن هذا الأدلة والترجيحات ما قاله أحمد بن يحيى بن جابر: " حدّثني بكر بن الهيثم قال: سألت عبدالله بن صالح عن البربر، فقال: هم يزعمون أنّهم من ولد بَرّ بن قيس بن عَيلان، وما جعل الله لقَيس من ولد اسمه برّ، وإنّما هم من الجبّارين الذين قاتلهم داود وطالوت، وكانت منازلهم على الدهر ناحية فلسطين، وهم أهل عَمُود، فلمّا أُخرجوا من أرض فلسطين أَتَوا المغرب فتناسلوا وأقاموا في جباله "[39]. وإنّ الحجة التاريخيّة ـ وهي هنا عماد الحكم على صحة الخبر ـ لم تنازع الخبر وجوده، ولم تجابه الحجة الأدبيّة التي تقضي من المؤلِّف أنّ يروي ما بلغه من الأخبار ـ وإن تضاربت أو اختلطت ـ لاستكمال جوانب الخبر والإلمام بما جاء فيها من ضروب المرويّات، غير أنّ ما أشار إليه الدكتور فاخر ميّا من أنّ تلاقي وحدة النفس ووحدة الوجود يعود إلى الحركة الصاعدة للبشريّة التي تعكس المراحل الخاصة الكبرى للتطور البشريّ، وإنّها تعود إلى الصراع الإيديولوجي لتبلغ شمولية الإنسان[40]، وعليه فإنه يصحّ نسب البربر إلى العرب.

وإن المتأمّل في مؤلّفات ياقوت الأدبيّة والجغرافيّة يرى أنه كان يراجع ذاكرة الجماعة، وما حفظته الآثار والكتب والأشعار في سبيل تحقيق الخبر والتأكّد من صحته، على نحو ما نجده فيما رواه عن ابن إسحاق من أخبار أصحاب الأخدود، وهو أنّ رجلاً من بقايا أهل دين عيسى عليه السلام قدم من الشام إلى نجران، وقد كان أهل نجران مشركين يعبدون الأصنام، وكان هناك ساحر يعلم الغلمان السحر، فكان أهل نجران يرسلون أولادهم إليه، فبعث الثامر ابنه عبدالله معهم، وكان ابن الثامر إذا مرّ بخيمة الراهب أعجبه ما يراه من صلاته وعبادته، فتنصّر عبدالله بن الثامر، وعندما عرف عبدالله اسم الله الأعظم أصبح يعالج الناس بعد أن يدعوهم إلى الدخول في دينه فيستجيبون له:" فرُفع أمره إلى ملك نجران فأحضره وقال له: أفسَدتَ عليّ أهل قريتي وخالفت ديني ودين آبائي، لأمَثّلَنَّ بك! فقال: لا تقدر على ذلك، فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيُطْرَحُ من رأسه فيقع على الأرض ويقوم وليس به بأسٌ، وجعل يبعث به إلى مياهٍ بنجران بُحُور لا يقع فيها شيء إلّا هلك فيُلقى فيها فيخرج ليس به بأسٌ، فلمّا غلبه قال عبدالله بن الثامر: لا تقدر على قتلي حتّى توحّد الله فتؤمن بما آمنتُ به فإنّك إن فعلت ذلك سُلِّطت عليّ فتقتلني، قال: فوحّد الله ذلك الملك وشهد شهادة عبدالله بن الثامر ثم ضربه بعصا كانت في يده فشجّه شجّةً غير كبيرة فقتله"[41]. يقف ياقوت على خبر ابن إسحاق متعجّباً أن يكون الملك قد آمن بالله وبعد إيمانه قتل عبدالله بن الثامر الذي آمن على يديه، لذا نجده ينتقد هذه الرواية ويستعين بالسنّة التي تعد من أقوى المصادر في هذا الأمر، لبيّن اختلاف رواية ابن إسحاق مع رواية الترمذيّ ومسلم التي تؤكّد أنّ الملك الذي قتل عبدالله بن الثامر والنصارى كان كافراً، فيقول:" اختلفوا ههنا، ففي حديث رواه الترمذيّ من طريق ابن أبي ليلى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم غير هذا السياق وإن قاربه في المعنى، فقال: إنّ الملك لمّا رمى الغلام في رأسه وضع الغلام يده على صُدْغه ثم مات، فقال أهل نجران: لقد علم هذا الغلام علماً ما علمه أحد فإنّا نؤمن بربّ هذا الغلام، فقال: فقيل للملك أ جزعتَ أن خالفك ثلاثة؟ فهذا العالم كله قد خالفوك! قال: فخدّ أُخدوداً ثم ألقى فيه الحطب والنار ثم جمع الناس وقال: من رجع عن دينه تركناه ومن لم يرجع القيناه في هذه النار، فجعل يلقيهم في ذلك الأخدود، فذلك قوله تعالى:﴿ قُتل أصحاب الأخدود، والنار ذات الوقود﴾ حتى بلغ إلى ﴿ العزيز الحميد﴾ ... وروى هذا الحديث الترمذي عن محمود بن غيلان عن عبدالرزاق بن معمر، ورواه مسلم عن هدّاب بن

[38] المصدر نفسه، 368/1.
[39] المصدر نفسه، 368/1.
[40] ينظر: مذكرات نقديّة، فاخر ميّا، دار الينابيع، دمشق، 1997م، ص60-62.
[41] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، 267/5.

خالد عن حمّاد بن سلمة ثم اتفقا، عن سالم عن أبي ليلى عن صُهَيب عن النبي صلى الله عليه وسلم"[42]. وبهذا تسقط رواية ابن إسحاق أنّ الملك كان مؤمناً.

ثم يوجه ياقوت نقداً آخر لرواية ابن إسحاق أن ذا نواس سار إليهم بجنوده " فدعاهم إلى اليهوديّة وخيّرهم بين ذلك والقتل فاختاروا القتل، فخدّ لهم الأخدود فحرق من حرق في النار وقتل من قتل بالسيف ومثّل بهم حتّى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً، ففي ذي نواس وجنوده أنزل الله تعالى:﴿ قُتل أصحاب الأخدود والنار ذات الوقود﴾. فيعلّق ياقوت ناقداً أن يكون ملك نجران آنذاك ذا نواس قائلاً:" خبر الترمذيّ ومسلم أعجب إليّ من خبر ابن إسحاق لأنّ في خبر ابن إسحاق أنّ الذي قتل النصارى ذو نواس وكان يهودياً صحيح الدين اتّبع اليهوديّة بآيات رآها ... ودين عيسى إنّما جاء مؤيّداً ومسدّداً للعمل بالتوراة فيكون القاتل والمقتول من أهل التوحيد والله ذمّ المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود فبَعُدَ أذاً ما ذكره ابن إسحاق"[43]. فياقوت لا يتفق مع ما ذهب إليه ابن إسحاق من أنّ ذا نواس هو الذي حرق أهل الأخدود، ونجده يميل إلى ما أورده الترمذيّ ومسلم من أنّ الملك كان كافراً وأصحاب الأخدود مؤمنون.

غير أنّ ياقوت وإن لم تشفع له ذاكرة الجماعة في التأكّد من مصداقيّة ما نقل عرض أخباره على العقل، فعقليّة ياقوت النقديّة لا تجعله يسلّم بسهولة بما يورده الإخباريون بل يحاول أن يناقش الخبر الذي لا يطمئن إليه، ويقدّم الأدلة التي تساعد على رفضه. ومن ذلك ما ذكره في أثناء حديثه عن الإسكندر، فياقوت يشك في صحة أن يكون عمر الإسكندر اثني وثلاثين عاماً وسبعة أشهر، وهو الذي خاض الحروب، وقتل الملوك وقهرهم، ووسّع أراضيه، وبنى الإسكندريّة، وارتحال إلى أقصى الصين، فيقول:" وهذا إنْ صحّ، فهو عجيبٌ مفارق للعادات، والذي أَظُنُّه، والله أعلم، أنّ مُدَّةَ ملكه أو حِدة سعده هذا المقدار، ولم تحسب العلماء غير ذلك من عمره"[44]. ثم يدللّ على ذلك بما يُقنع القارئ بصدق ما ذهب إليه، إذ يقول:" فإنّ تطواف الأَرض بسير الجنود مع ثقل حركتها لاحتياجها في كلّ منزل إلى تحصيل الأقوات والعلوفة ومصابرة من يمتنع عليه من أصحاب الحصون يفتقر إلى زمان غير زمان السير ومِنَ المُحال أن تكون له هِمة يقاوم بها الملوك العظماء، وعمره دون العشرين سنة، وإلى أن يتسق مُلكه ويجتمع له الجند وتثبت له هيبة في النفوس وتحصل له رياسةٌ وتجربةٌ وعقلٌ يقبل الحكمة التي تحكَى عنه يفتقر إلى مدى أخرى مديدة، ففي أَيّ زمان كان سيره في البلاد وملكه لها ثم إحداثه ما أَحدث من المُدُن في كلّ قطر منها واستخلافه الخلفاء عليها؟"[45]. وهذا التدليل والتعليل يقوم على إدراك ووعي بالتاريخ سواء أ كان تاريخ الجيوش أو الملوك. فهو يستبعد أن تكون حركة الجيوش بتلك السرعة التي صوّرها الرواة، وأن يكون الإسكندر في وقت مبكر من عمره قد قدر على تحقيق تلك الانتصارات، وكسر شوكة كثير من الملوك ممّن يمتلكون خبرة أكثر منه، إضافةً إلى صعوبة إقناعه للناس وفرض هيبته عليهم وهو في هذا السن؛ لذا يرى أنّه ربّما كان هذا الزمن هو مُدّة ملكه لا مُدّة عمره كاملاً.

على أنّ الحمويّ وإن أشكلت عليه بعد ذلك بعض الأخبار راجع قلبه والتمس دليلاً في مشاهدته والعيان فهو لا يقطع بصحة الخبر حتّى يُثبت صدقه بنفسه أو يسأل عنه. وقد تمثّل ذلك في الخبر الذي ذكره عن مدينة الإسكندريّة من طريق المؤرّخ الحسن بن إبراهيم المصريّ المعروف بـ(زولاق) الذي أشار فيه إلى شدة بياض الإسكندريّة بالليل حتّى لا يكاد يبين دخول الليل فيها إلّا بعد وقت، كما أنّ الناس يمشون فيها وفي أيديهم خرق سود خوفاً على أبصارهم، وكذلك كان الخيّاط يدخل الخيط في الإبرة ليلاً، واستمرّ هذا البياض سبعين سنة دون أن يُسرج فيها سراج. وقد نفى

[42] المصدر نفسه، 5/267-268. / سورة البروج، الآيات 4- 8.
[43] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ،5/268.
[44] المصدر نفسه، 1/182.
[45] المصدر نفسه، 1/182.

ياقوت الخبر واستدلّ على ذلك بمشاهدته في أثناء رحلته إلى الإسكندريّة بين عامي 611ـ 612هـ، فرأى أنّها مظلمة مثل بقية البلدان ولا فرق بينها، ثمّ قال:" فكيف يجوز لعاقل أن يصدّق هذا ويقول به"[46].

كما تمثّل ياقوت ذلك أيضاً في حديثه عن أذرح أنّهم قبيل من الكرد، فقال: "حدّثني الأَمير شرف الدين يعقوب بن الحسن الهذَباني، قبيل من الأكراد ينزلون في نواحي الموصل؛ قال:" رأَيتُ أذرُحَ والجرباءَ غير مرّة، وبينهما ميل واحد وأقلُّ، لأَن الواقف في هذه، ينظره هذه، واستدعى رجلاً من أَهل تلك الناحية ونحن بدمشق، واستشهده على صحّة ذلك، فشهِدَ به. ثمّ لقيت أَنا غير واحدٍ من أهل تلك الناحية وسألتهم عن ذَلك، فكلّ قال مثل قوله"[47].

وتأسيساً على منهج ياقوت في نقد الخبر فقد ردّ ياقوت عدد ممّا انتهى إليه وإلى غيره من المؤلّفين من أحاديث العوام والأعراب. وهذا يشي بوعيه ممارسته الثقافيّة، وتنبّهه على اشتمال الموروث على الغث والسمين، والممكن والممتنع، ومن ثم وعيه ما وقعت فيه العامّة من ضروب التخليط والمسارعة إلى التصديق بغير تدقيق ولا تحقيق. فقد روى ياقوت في أخبار خوارزم أنّ أهلها وُصفوا بالعرض في رؤوسهم والوسع في جبهاتهم، فقال " فقيل لأحدهم: لم رؤُوسكم تخالف رؤوس الناس؟ فقال: إنّ قدماءَنا كان يغزون الترك فيأُسرونهم وفيهم شِيَةٌ الترك فما كانوا يُعرفون، فربّما وقعوا إلى الإسلام فبيعوا في الرقيق، فأَمروا النساء إذا ولدن أَن يربطن أَكياس الرمل على رؤوس الصبيان من الجانبين حتى ينبسط الرأْس، فبعد ذلك لم يسترقُّوا ورُدّ من وقع منهم إليهم إلى الكوفة"[48]. وقد استبعد ياقوت صحة الخبر ونقد ما جاء فيه معلقاً:" وهذا من أحاديث العامّة لا أَصل له، هَبْ أنّهم فعلوا ذلك فيما مضى فالآن ما بالهم؟ فإن كانت الطبيعة ورثته وولدته على الأصل الذي صنعه بهم أمهاتهم كان يجب أنّ الأعورَ الذي قُلعت عينه أن يلد أعور وكذلك الأحدب وغير ذلك، وإنّما ذكرت ما ذكر الناس"[49].

كما أنّ مذهب الحمويّ في تلقي الخبر ينطوي ـ غالباً ـ على قراءةٍ واعيةٍ وناقدةٍ، وهي ممارسةٌ تراجع ما تأصّل بحكم شيوعه حتّى عُدّ في الصحيح. فالخبر وإن صدر عن العلماء ودارسي الكتب فإنّ ذلك لم يمنع ياقوت من إنكار ما جاء عنهم حين يتنافى ومعاييره. ففي حديثه عن بلدة (مَسْكِن) وهو موقع قريب من أوَانا على نهر دُجيل عند دير الجائليق يشير ياقوت إلى ما وقع بين عبدالملك بن مروان ومصعب بن الزبير سنة72هـ، ويتوقف عند القول إنّ عبيدالله بن زياد بن ظبيان هو الذي قتل مصعباً، فيذكر أنّ هذا هو أكثر ما يروى عند رواة الأخبار، ولكنّه يرجّح ما يرى أنّه الصواب، وهو أن عبيدالله بن زياد لم يقتل مصعباً" إنّما وجده قد ارتُثّ بكثرة الجراحات فاحتزّ رأسه"[50]. ومن هنا كانت هذه الممارسة قراءةً تقاوم، تقبل وترفض، تثبت وتنفي، حتّى تصلّ إلى ما يرضي نزوعها إلى التثبّت، وميلها إلى التقصّي، لتخرج بريئة من عيب الأحاديث، ووهن الأخبار، وفتنة القول.

وعلى الرغم من أنّ ياقوت الحمويّ كان يثبت صحة خبره بأكثر من طريق، ولا يقبل الأخبار على علاتها، فإنّه قد يورد بعض الأخبار مع الشكّ في صحتها فيذكرها دون أن يحقها أو ينفيها معتمداً على دلالات الادّعاء فيها من خلال عبارات التشكيك تاركاً للقارئ أمر نقدها. ومن ذلك ما جاء في خبر الشاعر الناشي الأحصّي، " كان في أيام سيف الدولة أبي الحسن عليّ بن حمدان، له خبر ظريف، أنا مُورِده ههنا، وإن لم أكن على ثقّة منه، وهو أنّ هذا الشاعر الأَحَصّي دخل على سيف الدولة، فأنشده قصيدة له فيه، فاعتذر سيف الدولة بضيقِ اليَدِ يومئذ، وقال له: أعذر فما

[46] **المصدر نفسه، 186/1.**
[47] **معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، 129/1-130.**
[48] **المصدر نفسه، 396/2-397.**
[49] **المصدر نفسه، 397/2.**
[50] **المصدر نفسه، 128/5.**

يتأخّر عنا حَمْلُ المال إلينا، فإذا بلغك ذلك فأتِنا لنضاعف جائزتك، ونحسن إليك. فخرج من عنده فوجد على باب سيف الدولة كلاباً تُذْبحُ لها السَّخالُ وتُطعَمُ لحومَها، فعاد إلى سيف الدولة، فأنشده هذه الأَبيات:

رأَيــتُ بــبــابِ داركــم كِـلابـاً ... تُـغَـدِّيـهـا وتُـطْـعِـمُـهـا الســخـالا

فمـا فـي الأرض أَدبَـرُ من أديبٍ ... يكــون الكلــبُ أحسَـنَ منـه حـالا

ثم اتّفق أن حُمِلَ إلى سيف الدولة أموالٌ من بعض الجهات على بغال، فضاع منها بغل بما عليه، وهو عشرة آلاف دينار، وجاءَ هذا البغل حتّى وقف على باب الناشي الشاعر بالأَحَصّ، فسمع حِسّه، فظنّه لصّاً فخرج إليه بالسلاح، فوجده بغلاً مُوقَراً بالمال، فأَخذ ما عليه من المال وأَطلقه، ثم دخل حلب ودخل إلى سيف الدولة وأنشده قصيدة له يقول فيها:

ومَن ظَـنَّ أنّ الـرزْقَ يأتي بحيلةٍ، ... فـقــد كَـذّبَتْــهُ نفــسـه، وهـو آثِــمُ

يَفُوتُ الغنى من لاينام عن السُّري ... وآخَــرُ يــأتــي رِزْقُــــهُ، وهـو نـائـمُ

فقال له سيف الدولة: بحياتي! وصل إليك المال الذي كان على البغل؟ قال: نعم. فقال: خذ بجائزتك مبارَكاً لك فيه..."[51]. وفي هذا الخبر أشار ياقوت إلى أنّه ذكره دون أن يكون على ثقة منه ممّا نبّه القارئ إلى ضرورة التأكّد من صحته والاحتراز في التعامل معه حتّى لا يعد من قبيل الأخبار التي تصوّر وقائع تاريخيّة، فهو يقف بالمرصد لهذا الأخبار ويوردها لأنّها تحقّق جانباً من المتعة الفنيّة، ولأنّه لا يريد أن يخلي كتابه منها.

ولئن كان مؤلّفوا كتب الأخبار ـ ومنهم ياقوت ـ يميلون إلى إثبات الأخبار المصنوعة، ويكتفون بالحكم عليها إلّا أنّهم يعمدون أحياناً إلى حذفها، ويبررون ذلك بأسباب كثيرة منها الاقتصار على المعلومات المهمّة دون ذكر التفاصيل خوفاً من التطويل والملل، لذلك نجده يقول في أثناء حديثه عن بيت المقدس:" وهذا كافٍ من خبرها وليس كلّ ما أجده أكتبه ولو فعلت ذلك لم يتسع لي زماني"[52]. وعند حديثه عن الإسكندريّة:" واختلفوا في أوّل من أَنْشَأَ الإسكندريّة التي بمصر اختلافاً كثيراً نأتي بمختصر لئلا نُمِلّ بالإكثار"[53]. وأيضاً:" ولو استقصينا في أخبار الإسكندريّة جميع ما بلغنا لجاء في غير مجلّد، وهذا كافٍ بحمد الله"[54]. وفي حديثه عن البلغار: " ولهم أَخبار اقتصرنا منها على هذا"[55]. وهذا يعطينا دلالة على أنّ المسألة ليست مرتبطة بالتطويل فقط، وإنّما مرتبطة بالجودة وعدمها فهو يذكر الجيد أمّا الغث فيسقطه متذرّعاً بأنّه يؤدّي إلى التطويل.

وهكذا نجد أنّ ياقوت كشف من خلال وقفاته النقديّة السابقة عن حس نقديّ واضح، كما أوضح امتلاكه لخلفيّة تاريخيّة وأدبيّة جعلته قادراً على مناقشة هذه الجوانب في بعض الأخبار وإدراك ما فيها من أخطاء وتصحيحها.

وإنّ الأخبار التي نعثر عليها إذن في مؤلّفات ياقوت ـ وإن أخضعها صاحبها للنقد، وحذف منها أجزاء تطول أو تقصر، وأبدى فيها آراء نقديّة ـ ليست من تحريره. فليس له فيها غير فضل الرواية والاختيار والتصنيف والتثبّت، ممّا يؤكد لنا أنّه مؤلّف ناقل عن غيره سواء أكان عن طريق الرواية الشفويّة أوعن طريق النسخ. ولكنّ السؤال هنا هل نجد في هذه الأخبار ما يدلّ على أنّها أو بعضها من وضع المؤلّف نفسه؟ هذا ماسنحاول الإجابة عنه فيما يلي.

[51] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، 1/114- 115.
[52] المصدر نفسه، ، 171/5.
[53] المصدر نفسه، 183/1.
[54] المصدر نفسه، /188.
[55] المصدر نفسه، 488/1.

3 ـ المؤلّف المبدع:

ثمّة اتجاهان رئيسان في طريقة إيراد المؤلّفين للأخبار: اتّجاه تحكمه الرواية والنقل، وفيه يقتصر دور المؤلّف على نسخ الأخبار من مصادر مكتوبة أو تسجيل روايات شفويّة وتثبيتها بالخط وقراءتها على الشيخ أو الرواية وتصحيحها ومقابلتها بما هو من جنسها. والأمثلة عليه كثيرة وخصوصاً في حال التطابق التام بين أخبارٍ توجد في مصادر مختلفة وضعها مؤلّفون مختلفون. واتّجاه آخر قوامه الإبداع والإنشاء، وفيه يتضخم دور المؤلّف شيئاً ما، ويكبر هامش حريته في التصرّف، فلا يكون دوره منحصراً في النقل وإنّما يتجاوزه إلى الإنشاء والصياغة. وهذا الاتّجاه هو الأقلّ ظهوراً من سابقه وتدلّ عليه بعض النصوص، فمؤلّفو كتب الأخبار كان دورهم ينحصر في الأداء، فهم آخر حلقات الرواية، لا بل دورهم ينحصر أحياناً في نسخ الخبر من كتاب أو دفتر أو صحيفة ويكتفون بهذا العمل، لذلك فإنّ من الاستثناء أن ينسب الخبر إلى واضع بعينه. فإذا كانت كلمة (الشاعر) تأتي للدلالة على قائل الشعر، وكلمة (الخطيب) للإشارة إلى صاحب الخطبة فإنّ كلمة (الأخباريّ) لا تدلّ على صاحب الخبر وإنّما تدلّ على راوي الخبر والقصة والحكاية، وعليه فإنّ قيمة الإخباريّ تكمن في مدى أمانته في نقل الأخبار.

ويتعيّن علينا هنا إلّا نتردد في إثبات الطابع الشعبيّ لأدب الأخبار، وهو طابع لا يفهم إلّا إذا قوبل بالطابع الشخصيّ الرصين الذي يوجد في الرسائل والخطب. ووجه المقابل أنّ المؤلّف أو الراوية في كتب الأخبار لايستنكف من التصريح بأنّه يردّد عبارات غيره، أمّا الخطيب أو المترسّل فإنّه يجهد ليثبت قدرته على إنشاء بديع القول ممّا لم يُسبق إليه. لذا فقد أخرج المعاصرون أدب الأخبار ممّا أطلقوا عليه اسم النثر الفنيّ.

وإن كان المترسّل والخطيب يرصّعان نصوصهما بضروب من مأثور الأقوال شعراً ونثراً، فإنّ ذلك يرد في شكلٍ مبتكرٍ هو إعادة إنتاج لا اجترار وتكرار، وهناك فرق بين أن تعيد نصّاً بكامله وتعزوه إلى صاحبه أو إلى راويه، وبين أن تأخذ من النصوص شذرات وتبثّها في نصّك، ولهذا ارتبطت البلاغة بهذا الأدب الإنشائيّ المبتدع، وجلّ ما نجده في كتب النقد القديمة ـ مثل كتاب (نقد النثر) لقدامة بن جعفر وكتاب (الصناعتين) لأبي هلال العسكريّ ـ متّصلاً بالنثر يكاد ينصرف عن الإخبار انصرافاً، وقد جعل إبراهيم بن المدبر البلاغة قائمة على الابتكار فنصح من يريد أن يرتقي إلى مرتبة البليغ بأنّ يتجنّب ألفاظ غيره، فقال:" لا تطمح فيها [أي البلاغة] باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم، فإنّ ذلك غير مثمر لك ولا مجد عليك. ومن كان مرجعه فيها إلى اغتصاب ألفاظ من تقدّم، ولم يكن معه أداة تولّد له من بنات قلبه ونتائج ذهنه الكلام الحرّ والمعنى الجزل، فلم يكن من الصناعة في عير ولا نفير"[56]. فمدار الأمر إذا على الصياغة والإبداع، والأخبار غير ذلك.

إنّ ثنائيّة التكرار والاجترار والابتكار لا تمكّننا من التمييز بين الأخبار والرسائل مثلاً بإنماء الأخبار إلى التكرار، والرسائل إلى الابتكار، وإنّما تمكّننا أيضاً من التمييز بين الأخبار في ذاتها. ولئن وجدنا كثيراً من المؤلّفات صرّح أصحابها أنّهم ناقلون للأخبار ولا فضل لهم إلّا الانتقاء والتبويب، فإنّنا نجد في مواضع مختلف منها نزوعاً إلى الوضع والتأليف. ولمؤلّفات ياقوت الحمويّ مقام في هذا المجال، إذ يقول:" وهذه الكتب المدوّنة في هذا الباب التي نقلت منها ثمّ نقلت من دواوين العرب والمحدَثين وتواريخ أَهل الأَدب والمحدّثين، ومن أَفواه الرواة وتفاريق الكتب، وما شاهدتُه في أسفاري، وحصّلتُه في تطوافي أَضعاف ذلك"[57].

[56] قضايا الأدب العربيّ- تحليل نقدي لمفهوم النثر الفنيّ عند القدامى، البشير المجدوب، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس، 1978م، ص348.

[57] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، المقدّمة ص 12.

وإذا انطلقنا من رصيد الأخبار القصصيّة التي كانت موجودة في مؤلّفات ياقوت الحمويّ نجد أنّ قسماً كبيراً منها كان مستمدّ من التراث المكتوب والشفويّ الذي ورثه ممّا قلبه، وأنّ قسماً آخر كان من تأليفه. فياقوت في أثناء حديثه عن شيوخه الذين تتلمذ على يديهم، أو العلماء والأدباء والخطاطّين الذين أدركهم وعاش في زمنهم ولقيهم، أو البلدان التي شاهدتها كان يحدّث عن أخبارهم بنفسه، أو يذكر ما حدّثوه به بأنفسهم، أو يذكر ما حدّث به أحد الرواة عنهم، كما فعل في أثناء ترجمته للمبارك بن المبارك سعيد بن الوهن المعروف بالوجيه شيخه الذي تخرّج به وعليه قرأ، فنجده يحدّث عن أخباره بنفسه ذاكراً خبر الوجيه مع أحد الخلعاء عندما أراد إغضابه، فيقول: " كان الوجيه قد التزم سماح الأخلاق وَسَعَةَ الصدر فكان لا يغضبُ من شيء، ولم يُرَ من أحدٍ قط حردان، وشاع ذلك عنه وبلغ ذلك بعض الخلعاء..."[58]. ثم ذكر ما حدّثه به الوجيه عن خبره مع فخر الدين عندما تذاكرا الشعراء، فيقول: " وحدّثني الوجيه رحمه الله قال: دخلت يوماً إلى فخر الدين أبي علي الحسن بن هبة الله الدواميّ، وهو مَنْ علمت أدباً وفضلاً وحسنَ بشر وكرم سجيّة، فجلسنا نتذاكرُ الشعراءَ إلى أن انتهى بنا الكلام إلى البحتري..."[59]. وبعد ذلك ذكر ما حدّثه به محبّ الدين عن خبر الوجيه مع أبي المعالي قائلاً:" وحدّثني محبّ الدين محمّد بن النجّار قال: حضر الوجيه النحويّ بدار الكتب التي برباط المأمونيّة، وخازنُها يومئذ أبو المعالي أحمد بن هبة الله، فجرى حديثُ المعرّي فَذَمَّهُ الخازنُ..."[60].

كما استمدّ ياقوت قسماً من أخباره من رواياتٍ شعبيّةٍ كانت دائرة على الألسن في عصره، فأخذ على عاتقه تثبيتها بعد أن حذف منها أو أضيف عليه. فياقوت واحد من أولئك المؤلّفين الذين يسجلون ما يقفون عليه ممّا يُستملح ويلفت الأنظار، وقد أورد عبر صفحات كتاب (معجم البلدان) عدداً غير قليل منها. ومن ذلك إيراده خبر عجيب عن ظهور تنين في قرية كِلْز من ناحية عزاز بين حلب وأنطاكيّة، شاع بحلب عندما كان فيها سنة619هـ، وهو" أنّهم رأوا هناك تنيناً عظيماً في طول المنارة، وغلظها أسود اللون، وهو ينساب على الأرض، والنار تخرج من فيه ودبره فما مرّ على شيء إلّا وأحرقه حتّى إنّه أتلف عدّة مزارع وأحرق أشجاراً كثيرة من الزيتون وغيره، وصادف في طريقه عدّة بيوت وخركاهات للتركمان فأحرقها بما فيها من الماشية والرجال والنساء والأطفال، ومرّ كذلك نحو عشرة فراسخ والناس يشاهدون من بُعْدٍ حتّى أغاث الله أهل تلك النواحي بسحابة أقبلت من قبل البحر، وتدلّت حتّى شملت عليه ورفعته، وجعلت تعلو قِبَل السماء والناس يشاهدون النار تخرج من قبله ودبره وهو يحرك ذنبه ويرتفع حتّى غاب عن أعين الناس ..."[61] . وعلى الرغم من أنّ هذا الخبر فيه من الغرابة ما لا يكاد ذو تحصيل يسكن إليه، ولا ذو رأي يعول عليه، لأنّه أشياء تكلّم بها القصّاص للتهويل على العامّة على حسب عقولهم. فإنّنا نجد ياقوت يسجله ـ وإن ارتاب من صحته ولم يطمئن له ـ وذلك حرصاً على إحراز الفوائد، وطلباً لتحصيل القلائد والفرائد.

وإنْ كان ياقوت قد حصل له من خلال الاعتماد على ما أُلِّفَ قبله من مؤلّفات في الأدب، واللغة، والتراجم والسير، والبلدان والرحلات، والحديث النبويّ رصيد من النصوص عظيم إذ إنّه كان يعيد تدوين ما كتبوه ونسخوه ناصاً على مصادره، فإنّه كان في بعض الأحيان يتصرف في بعضها. فإذا تركنا الإسناد جانباً ونظرنا في متون هذه الأخبار، وجدنا هذه المتون قد تأتي أحياناً في صيغ مختلفة. وقد لمسنا ذلك في خبرين يضطلع بالبطولة فيهما إبراهيم

[58] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، 2265/5.
[59] المصدر نفسه، 2264/5.
[60] المصدر نفسه، 2266/5.
[61] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ،476/4. خركاهات: لفظ فارسي بمعنى الخيمة الكبيرة ، أو البيت من الخشب، يوضع على هيئة مخصوصة، ويحمل في السفر للمبيت. ينظر معجم الألفاظ التاريخيّة، محمّد أحمد دهمان، ص67.

السريّ الزجّاج وأبو العبّاس ابن يزيد المبرّد، وقد جاءا في كتاب (معجم الأدباء) على صورتين بينهما من الفروق ما يبعث على الحيرة، الخبر الأول:" حدّثني الزجّاج قال: كنتُ أخرطُ الزجاجَ، فاشتهيتُ النحوَ فلزمتُ المبرّد لتعلّمه، وكان لا يعلِّم مجاناً ولا يعلم بأجرة إلّا على قدرها، فقال لي: أيّ شيءٍ صناعتك، قلت: أخرطُ الزجّاج وكسبي في كلّ يوم درهمٌ ودانقان، أو درهم ونصف، وأريد أن تبالغَ في تعليمي، وأنا أعطيك في كلّ يوم درهماً، وأشرط لك أن أعطيك إياه أبداً إلى أن يفرِّقَ الموتُ بيننا، استغنيتُ عن التعليم أو احتجتُ إليه. قال: فلزمته وكنت أخدمه في أموره مع ذلك وأعطيه الدرهم، فينصحني في العلم حتّى استقلّلت، فجاءه كتابُ بعضِ بني مارمة من الصراة يلتمسون معلّماً نحويّاً لأولادهم، فقلت له: أَسْمني لهم فأَسماني، فخرجت فكنت أعلمهم وأنفذ إليه في كلِّ شهر ثلاثين درهماً وأتفقده بعد ذلك بما أقدر عليه... وكنت أعطي المبّرد ذلك الدرهم في كلِّ يوم إلى أن مات ولا أخليه من التفقّد بحسب طاقتي..."[62]. والخبر الثاني:" قال أبو إسحاق إبراهيم بن السريّ الزجّاج: أتيت أبا العباس ابن يزيد المبرّد حين دخل بغداد لأقرأ عليه الكتاب ـ يعني كتاب سيبويه ـ فقال لي: ما صنعتك؟ فقلت زجّاج، فقال لي: كم تكسب في كلّ يوم ؟ عشرة فما دونها، قال: جئ كلّ يوم بنصف ما تعمل فتطرحه في هذا الصندوق، وكان عنده صندوقٌ معمولٌ لهذا، قال: فبدأتُ بقراءة الكتاب، وكلّما جئتُ بشيءٍ طرحتُهُ في الصندوق، ولما فرغتُ من الكتاب وختمته رمى بمفتاحِ الصندوقِ إليَّ وقال لي: افتح وخذ ما تركتَ فيه، ففتحت وأخذتُ جميعَ ما فيه وكان قد اجتمع شيئاً كثيراً كبيراً، فرحم الله أبا العبّاس، فلقد آساني وأغناني وعلمني"[63]. فالنواة الأصليّة واحدة ما في ذلك شكّ، إلّا أنّ بعض الأحداث حتّى الرئيس منها موجودة هنا مفقودة هناك، عدا عن الصياغة والعبارة والصور، فالاختلاف بين الخبرين في هذا المجال عظيم.

وإنّ اعترافات المؤلّفين في مقدّمات مؤلّفاتهم قد تكون إشارات تقليديّة من شأنها أن تدلّ على أنّ دور المؤلّف قد يخرج من النقل، فهو لم يعد ذلك الناقل وإنّما هو مبدع، ولكنّه مبدع يختفي وراء النقل على غرار ما نجد في معجم البلدان، إذ يقول:" وجمعت ما شَتَّتُوه، وأَضفتُ إليه ما أَهملوه، ورتَّبتُه على حروف المعجم، ووضعته وضع أَهل اللغة المحكم، وأَبَنتُ عن كلّ حرف من اسم: هل هو ساكن أو مفتوح أو مضموم أو مكسور، وأَزَلتُ عنه عوارض الشُّبَه، وجعلته تبْراً بعد أَن كان من الشَّبَه، ثم أَذكر اشتقاقه وإن كان عربيّاً، ومعناه إن أَحَطْتُ به علماً إن كان عجميّاً ... واستَقصَيتُ لك الفوائد جُلَّها أو كلّها، ومَلَّكْتُك عَفواً صَفواً عَفْدَها وحَلّها، حتّى لقد ذَكرتُ أَشياء تأْباها العقول، وتَنفِر عنها طباع من له محصول ..."[64]. إنّ هذا القول يدلّ عل أنّ دور ياقوت يتجلّى في مستوى الخبر في انتقاء الأحداث وجمع ما أهملوه منها وإنشاء بنيتها، وفي مستوى الخطاب في ترتيب موادها وضبطها، ونظم الشعر ونسبته إلى شخصياتها؛ ولذلك وجدنا ميلاً إلى الإكثار من الأفعال التي تدلّ على المجهود الذي بذله من قبيل " جمعتُ، أضفتُ، رتّبتُ، وضعتُ، أبنتُ، أزلتُ، استقصيتُ...الخ".

ويمكن أن نجد بعض البوادر الدالة على هذا الدور الذي يضطلع به المؤلّف من خلال ما قاله ياقوت في أثناء ترجمته للقاسم بن محمّد بن بشار الأنباريّ: " قرأت في (كتاب الفهرست) الذي تمّمه الوزير الكامل أبو القاسم المغربيّ، ولم أجد هذا في النسخة التي بخط المصنِّف أو قد ذهب عن ذكري، قال: ذكر أبو عمر الزاهد قال، أخبرني أبو محمّد الأنباريّ"[65]. فياقوت ينصّ على أنّ الخبر قد قرأه من كتاب الفهرست، ويقول إنّه لم يجد هذا الخبر في النسخة التي بخط المؤلّف، وإنّه لم يعد يذكر أهو موجود فيها أم لا. وهذا القول يؤكّد أنّ ياقوتاً كان دوره أساساً في صياغة الخبر.

[62] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، 52/1.
[63] المصدر نفسه، 54/1.
[64] معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، المقدّمة ص 12.
[65] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، 2228/5.

وكذلك نجد هذا الدور عند حديثه الفتح بن خاقان:" أخبرني أبو عبدالله محمّد بن محمود بن النجّار الحافظ قال: أخبرني أبو القاسم الثعلبيّ، حدّثنا الفضل بن سهل، حدّثنا الخطيب أبو بكر، أخبرنا محمّد بن محمّد بن المظفّر السراج، حدّثنا المرزبانيّ، أخبرني محمّد بن يحيى الصوليّ، حدّثني أحمد بن عبدالرحمن، حدّثني وهب بن وهب بن وهب، حدّثني البحتريّ قال: قال المتوكّل: قل فيّ شعراً وفي الفتح فإنّي أحبّ أن يحيا معي ولا أفقده فيذهب عيشي ولا يفقدني فيذلّ، فقلْ في هذا المعنى فقلت أبياتي... وقال غير وهب الراوي للخبر، قال البحتريّ: قد كنت عملت هذه الأبيات في غلام كنتُ أكلفُ به، فلمّا أمرني المتوكّل بما أمر تنحيتُ فقلت الأبيات وأريته أنّني عملتها في وقتي وما غيرتُ فيها إلّا لفظة واحدة، فإنّني كنت قد قلت:

لا أرتـنـــي الأيـام فـقـدك مـا عـشـــتُ

فجعلته يافتح" [66]. والجليّ أنّ الخبر الذي يرويه ياقوت هو وليد السماع، ولكنّه يذكر اسم راوٍ ويهمل اسم راو آخر، فهو يذكر رواتين: الأوّلى لوهب والثانية لغيره إلّا أنّه ركّب منهما خبراً واحداً صاغه بعبارته".

علينا أذن ألّا نتعجل القول في دور المؤلف، وألّا نجزم بأنّه ناقل صرف أو مبدع صرف فالجانبان موجودان وإن كان أوّلهما أظهر إذا أصبح بمنزلة التقليد والسنّة التي يقوم عليها أدب الأخبار.

والنتيجة التي لابدّ من الوقوف عليه هي أنّ سنّة الأدب الأخبار تقتضي بأنّ يتقنّع المؤلّف أو الراويّ خلف غيره. فحتّى إذا كان المؤلّف مبدع الخبر الذي يسوقه فإنّه ينبغي أن يتظاهر بأنّه قد نقله عن غيره، وإنّ دوره بهذا المعنى يتمثّل في الاندراج في هذه السنّة، واتّخاذ النقل شكلاً ظاهريّاً لحقيقة باطنيّة تكاد لا تمسك هي الإبداع والإضافة، إلّا أنّنا يمكن أن نتبين أنّ السبب وراء هذا التقنّع يكمن في أنّ سنة أدب الأخبار تقتضي في بعض الأحيان نوعاً من النحل لأنّه هو الذي يهب الخبر سلطته ومبرّر وجوده. ومن ذلك ما ساقه ياقوت من خبرٍ في أثناء ترجمته لبنت الكنبريّ حدّث به أبو نصر من أنّها كانت غاية في الفضل وحسنة المعرفة بالنحو واللغة، وكان لها أخ غاية في الجهل، اختصما على ميراث والدهما، وعرض خصومتهما إلى والد أبي نصر الذي اغتاظ من تَفيْهقِها وحواشي كلامها، ومن سقطه وعاميته في مناقضتها، فقال لها " جرِّدي الدعوى فإنّه أقربُ للإنجاز، فقالت: لي ـ أيدّ الله الشيخ ـ في ذمته اثنان وعشرون ديناراً مطيعيّة سلاميّة، فقال له: ما الذي تقول؟ فقال: أما لها عندي اثنان، وسكت ورام أن يقول مثلما قالت فلم يقدر، فقال: بالله ياسيّدي كيف قالت فقد والله صدعتنا، فقال له: فضولك، قُلْ كما تحسن، وضحك أهلُ المجلسِ وصار طَنْزاً واندفعتِ الخصومةُ ذلك اليوم"[67]. والحقيقة أنّنا لا نجد عند أبي نصر ترجمة لبنت الكنبريّ ولا ذكراً لهذا الخبر في كتابه، وإنّما ادّعاء ياقوت ذلك كان لكي يبرّر ترجمته لها.

وكذلك ما أورده في ترجمته لمحمّد بن عليّ بن أبي مروان الأمويّ، فقد ذكر إحسان عبّاس أنّ "هذه ترجمة غريبة ولا أدري من أين جاء بها ياقوت، والأشعار التي أوردها لم أجدها في المصادر الأندلسيّة"[68].

وإذا كان ياقوت ممّن يمثّل هذا الطراز من الإبداع المقنّع بإهاب التقليد، فلا ينبغي أن يذهب بنا الظنّ إلى أنّه كان في هذا الضرب من الوضع والتوليد ظاهرة شاذة في الأدب العربيّ في العصر العباسيّ، فقد أشار طه حسين إلى أنّ النحل كان شائعاً بين الأدباء وخاصّة للأغراض التعليميّة الصرفة ولم يكن ذلك مدعاة للاستنقاص أو الإدانة. ومن هذه الأخبار خبر الأمير أبي نصر أحمد بن الحسين ابن الميكاليّ مع أبي بكر ابن دريد وقوامه أسئلة وأجوبة عن منتزهات

[66] معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، 5/ 2159-2160.
[67] المصدر نفسه، 2243/5.
[68] المصدر نفسه، الحاشية 2580/6.

العيون (غوطة دمشق، نهر الأبلّة، سُغْدُ سمرقند، نهروان بغداد، شعب بوّان بأرض فارس، نوبهار بلخ)، ومنتزهات القلوب(عيون الأخبار للقتيبي، الزهرة لابن داود، قلق المشتاق لابن أبي طاهر) ، وهذا النحو من الأخبار[69] هو أصل المقامات ومايشبهها من هذا النوع من أنواع الإنشاء.

خاتمة:

من خلال ما تقدّم نجد أنّنا إذا انطلقنا من رصيد الأخبار القصصيّة التي كانت موجودة في مؤلّفات ياقوت الحمويّ(معجم الأدباء) و(معجم البلدان) نجد أنّ قسماً كبيراً منها كان مستمدّاً من التراث المكتوب والشفويّ الذي ورثه ممّا قبله، ممّا يؤكد لنا أنّه كان مؤلّفاً ناقلاً عن غيره سواء أكان عن طريق الرواية الشفويّة أوعن طريق النسخ؛ إذ إن الدور الأساس لياقوت كان يتمثّل في تحمّل الأخبار واختيارها وأدائها، وفي إخضاع بعضها للنقد، وإبداء بعض الآراء النقديّة، وحذف أجزاء منها تطول أو تقصر، فكشف من خلال وقفاته النقديّة هذه عن حس نقديّ واضح، وعن امتلاكه لخلفيّة تاريخيّة وأدبيّة جعلته قادراً على مناقشة هذه الجوانب في بعض الأخبار وإدراك ما فيها من أخطاء وتصحيحها.

في حين أنّ قسماً آخر كان من تأليفه، فهو لم يعد ذلك الناقل الصرف وإنّما هو مبدع أحياناً، ولكنّه مبدع يختفي وراء النقل. ولذلك علينا أذن ألّا نتعجل القول في دور المؤلف، وألّا نجزم بأنّه ناقل صرف أو مبدع صرف فالجانبان موجودان، وإن كان أوّلهما أظهر إذا أصبح بمنزلة التقليد والسنّة التي يقوم عليها أدب الأخبار.

وعليه نستطيع أن نقول إنّ دور ياقوت الحمويّ في مؤلّفاته قد تنوّع بين النقل والنقد والإبداع، وإن كان النقل هو الغالب عليه، وهذا التنوّع هو ما بوّأه منزلة مخصوصة عند مؤلفي كتب الأخبار، وجعل مؤلّفاته من أهم كتب الأخبار في التراث العربيّ على الإطلاق.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1. أدبيّة النصّ السرديّ عند أبي حيّان التوحيديّ، حسن إبراهيم الأحمد، دار التكوين، دمشق، 2009.
2. الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، محمد بن عبدالرحمن السخاويّ، عُني بنشره حسام المقدسيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت، 1979م.
3. التعريف بالمؤرخين في عهد المغول والتركمان، عبّاس العزاويّ، شركة التجارة والطباعة، بغداد، 1957م.
4. الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، زكي محمّد حسن، دار المعارف، القاهرة، 1945م.
5. الرحلة والرحالة المسلمون، أحمد رمضان أحمد، دار البيان العربيّ، جدّة، د.ت.
6. الرسائل (رسالة في الحنين إلى الأوطان)، الجاحظ، تح:عبدالسلام هارون، دار الخانجيّ، مصر، 1979.
7. سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبيّ، تح: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط7، 1990م.
8. صاحب الأغاني أبو الفرج الأصبهانيّ الراوية، محمّد أحمد خلف الله، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1962م.
9. قضايا الأدب العربيّ– تحليل نقدي لمفهوم النثر الفنيّ عند القدامى، البشير المجدوب، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصاديّة والاجتماعيّة، تونس، 1978م.
10. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، د.ت.
11. مذكرات نقديّة، فاخر ميّا، دار الينابيع، دمشق، 1997م.

[69] **ينظر: معجم الأدباء، ياقوت الحمويّ، 2498/6.**

12. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، اليافعيّ ، دار الكتاب الإسلاميّ، القاهرة، ط2، 1413هـ/1993م.
13. المستفاد من ذيل تاريخ بغداد،ابن الدمياطيّ، تح: قيصر أبو فرح،دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر آباد، ط1
14. معجم الأدباء(إرشاد الأديب في معرفة الأديب)، ياقوت الحمويّ، تح: إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1993م.
15. معجم البلدان، ياقوت الحمويّ، دار صادر، بيروت، 1977م.
16. المقدّمة، عبدالرحمن بن خلدون، الدار التونسيّة للنشر، تونس، 1989م
17. من أشكال السرد العربي القديم: الخبر الأدبيّ، جمال حمّاد، مجلة البيان، الكويت، العدد483، 2010م.

Sources and references:

The Holy Quran.
1. Literature of the Narrative Text of Abu Hayyan Al-Tawhidi, Hassan Ibrahim Al-Ahmad, Dar Al-Takween, Damascus, 2009AD.
2. Announcing the rebuke of the defamation of history, Mohammed bin Abdulrahman Al-Sakhawi, concerned with the publication of Husam al-Maqdisi, Dar al-Kitab al-Arabi, Beirut, 1979AD.
3. Definition of Historians in the Mughal and Turkmen Era, Abbas Al-Azzawi, Trade and Printing Co. Ltd., Baghdad, 1957AD.
4. Medieval Muslim Travelers, Zaki Mohammed Hassan, Dar al- Maaref, Cairo, 1945AD.
5. Flight and Muslim Travelers, Ahmed Ramadan Ahmed, Dar Al-Bayan Al-Arabi, Jeddah, No date.
6. Letters (a message in the homesickness), Al-Jahez, Investigation of Abdul Salam Haroun, Dar Al-Khanji, Egypt, 1979AD.
7. Biographies of the nobles, Shams al-Din al-Dhahabi, Investigation of Shoaib Arnaout, Foundation al-resala, Beirut, Seventh Edition,1990AD.
8. The author of the songs Abu al-Faraj al-Asbahi narrator, Mohammed Ahmed Khalafallah, the Anglo-Egyptian Library, Cairo, 1962AD.
9. Issues of Arabic Literature - A Critical Analysis of the Artistic Prose Concept of the Veterans, Bashir Al-Majdoub ، Center for Economic and Social Studies and Research, Tunis, 1978AD.
10. The tongue of the Arabs, Ibn Manzoor, Dar Sader, Beirut, No date.
11. Mozkerat Nakdei, Fakher Mayyam Dar al Yanabea'a Damascus, 1997AD.
12. Mirror of the Jinan and the lesson of vigilance in the knowledge of what is considered the incidents of time, Al- Yafai, Dar al- kitab Al-Islami, Cairo, second Edition, 1413AH / 1993AD.
13. Learned from the tail of the history of Baghdad, Ibn Al- Domiati, Investigation of Qaesar Abu Farah, Dairat Al- maarif Al- Ottoman, Hyderabad, First Edition.
14. Dictionary of writers (guidance of the author in the knowledge of the writer), Yakoot Al- Hamwi, Investigation of Ihsan Abbas, Dar Al-gharb Al- Islami, Beirut, First Edition, 1993AD.
15. Dictionary of Countries, Yakoot Al-Hamwi, Dar Sader, Beirut, 1977AD.
16. Introduction, Abdulrahman bin Khaldoun, Dar Al-Tunisian Publishing, Tunis, 1989AD.
17. One of the forms of the ancient Arab narrative: literary news, Jamal Hussein Hammad, Al-Bayan Magazine, Kuwait, No: 483, 2010AD.